البـلاذري

أعـلام المؤرخـين

obeikandl.com

obeikandl.com

المؤرخ الكبير البلاذري

هو أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م)، نشأ في بغداد من عائلة مارس بعض رجالها صنعة الكتابة، وورث " البلاذري عنهم هذه الصناعة، ورحل في الأمصار الإسلامية لطلب العلم، وصار أحد النقلة عن اللسان الفارسي، وقد ترجم كتاب (عهد أردشير، ونظمه شعراً).

ويعد البلاذري أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري من حيث سعة المعلومات التي دونها والفترات التاريخية التي غطاها، لكن كتابه أنساب

الأشراف أحسن انتقاء للروايات وأنقى أسانيد وأكثر اتفاقًا مع روايات أهل الثقة والصدق من تأريخ الطبري.

نشأ أحمد بن يحيى إذن مع القرن الثالث من الهجرة.

وكان هذا الزمن من أخصب عصور الخلافة العباسية في الثقافة والحضارة والسياسة.

كان عصر الترجمة من الفرس واليونان، التي أغنت التراث الإسلامي، وعصر الفن الذي تجلى في قصور المعتصم والمتوكل، وعصر الترف الذي رف بما تدفق على بغداد من أموال وخراج، وعصر الرواية والعلم الذي تجلى في كتب الواقدي والمدائني وابن سعد والقاسم ابن سلام وابن الكلبى.

كل ذلك أثر في صاحبنا وأثر في تكوينه وثقافته وحياته.

ويختفى اسم صاحبنا بعد وفاة المأمون، فلا نكاد نجد له ذكرًا أيام المعتصم (٢٢٧ هـ) وأيام الواثق (٢٣٢ هـ)، حتى إذا كان أواخر

أيام المتوكل وجدناه يجالس الخليفة ويحضر مجالسه فينادمه ويحادثه.

ونراه في الأعذار العظيم الذي أقامه المتوكل لابنه المعتز متصدرًا في بركوارا قصر الهناء، وهو من أعظم قصور المتوكل مع البحترى، وعلي ابن الجهم، والحسين بن الضحاك، وعلي بن ربن الكاتب، ويعقوب بن السكيت، وأبناء حمدون النديم.

وهذا يدل على مكانته عند المتوكل وشأنه.

وقد وصل إلينا طرف من مجالسه مع المتوكل، فيما كان يجادل فيه ويناقش، أو فيما كان يرويه عن المتوكل في كتابه فتوح البلدان.

لكن أيام المتوكل لم تطل، فقد قتل سنة ٢٤٨ هـ.

ولعله بقي معه في العشر السنوات الأخيرة من خلافته.

وخلف المتوكل ابنه المنتصر، فلم يلبث طويلا حتى قتل أيضًا، سنة ٢٤٨ هـ، وكانت خلافته ستة شهور.

فخلفه المستعين، وإذا بصاحبنا يتصل به فيكون أثيرًا عنده، وإذا بأموال الخلافة تغمره فيدخر منها.

وقصته مع المستعين ذات شأن لأنها تنير طرفًا من حياته. وقد حفظها لنا ابن النديم فيما نقله عن التنوخى.

فقد مدحه مدحًا جميلا، فبعث إليه سبعة آلاف دينار وكتب إليه بخطه رقعة فيها: " قد أنفذت إليك سبعة آلاف دينار.

وأنا أعلم أنك ستجفى بعدى وتطرح، وتجتدى فلا يجدى عليك.

فاحفظ هذه الدنانير عندك، فإذا بلغت بك الحال إلى هذا فأنفق منها ولا تتعرف لأحد ليبقى ماء وجهك عليك.

ولك عليَّ ألا تحتاج ما عشت إلى شيء في أمر دنياك كبير أو صغير على حسب حكمك وشهوتك ".

وتابع المستعين جراياته وأرزاقه عليه فكان ينفق ولا يحتاج أحدًا.

وبلغ صاحبنا غاية ما يريد في كنف المستعين وعطفه وحدبه.

وانقضت خلافة المستعين بعد أربع سنوات، فقد أمر المعتز بقتله سنة ٢٥٢ هـ وهو شاب قد تخطى الثلاثين.

وقد كان من المتوقع، وقد تولى المعتز الخلافة، أن يجفى صاحبنا ويطرح لصلته بالمستعين. لكننا نجده قريبًا منه يعهد إليه بتأديب ابنه عبد الله، وعمر عبد الله خمس سنوات. ولعل ذلك لصلته القديمة بأبيه المتوكل.

ولقد رأينا أن صاحبنا كان في إعذار المعتز يوم أعذره أبوه.

ثم صار أمر المعتز إلى ما صار إليه المستعين من قبل.

فأمر صالح بن وصيف التركي، بعد أربع سنوات من توليه، أن يدخل في حمام ويسد عليه بابه. فمات وهو في ريعان صباه لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

وخلف ابنه عبد الله وهو يحدر نحو التاسعة.

ولا ندرى إذا كان صاحبنا تابع تأديب ابن المعتز في خلافة المهتدى (قتل سنة ٥٢٦) والمعتمد (مات سنة ٢٧٩ هـ).

فنحن لا نجد شيئًا في المصادر يدلنا على ذلك والغريب أن ابن المعتز لا يذكر أستاذه بشيء في تواليفه، حتى في طبقات الشعراء، في حين أنه ذكر فيها شعراء أقل منه شأنًا.

وبدأ مجد أحمد بن يحيى بالزوال، ونجمه بالأفول منذ توفي المعتز فانعزل وجفا القصور.

وكان عهد المعتمد أشد عهود حياته سوءًا وحاجة وفقرًا.

قضاه في صراع عنيف وضيق، فقد نفد مال المستعين وأدركته الحاجة وركبته الديون، فلجأ أول ما لجأ، إلى عبيد الله بن يحيى.

وكان عبيد الله وزيرًا للمعتمد سنة ٢٥٦ هـ، فسأله العطاء.

ويحدثنا عن ذلك فيقول: " كانت بيني وبين عبيد الله بن يحيى بن خاقان حرمة منذ أيام المتوكل وما كنت أكلفه حاجة لاستغنائي عنه.

فنالتني في أيام المعتمد على الله إضافة، فدخلت إليه وهو جالس للمظالم.

فشكوت إليه تأخر رزقي وثقل ديني وقلت: إن عيبًا على الوزير أعزه الله حاجة مثلي في أيامه وغض طرفه عني.. " فوقع لي ببعض ما أردت. ولكن عبيد الله حجبه إذ جاء إلى بابه في مرة ثانية. ثم لجأ صاحبنا إلى إسماعيل بن بلبل، أبي الصقر. وكان تولى الوزارة للمعتمد بعد عبيد الله سنة ٢٦٥ هـ، وبقي إلى سنة ٢٧٧ هـ. فمدحه رغبة أن يطلق له بعض المال وكتب إليه كتابًا حسنًا، فوعده ولم يفعل فهجاه ونعته باللئيم، وسمى من يلجأ إليه بالذليل.

حتى إذا ما مضى أبو الصقر عن الوزارة، وتولاها أحمد بن صالح شيرزاد سنة ٢٧٧هـ، عاد فلجأ إليه فتشاغل عنه فهم أن يهجوه، فخاف وقضى حاجته [١].

وهكذا كانت تقترب حياة أحمد نهايتها، وهو مبعد عن الخلفاء

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٥/ ٩٥.

صفر اليدين، يطلب الرزق من أبواب الوزراء فيعطى مرة ويجفى مرات،
فلا يجد ما ينفس به ألمه وعجزه ونقمته وأنفته إلا الهجاء.

وقد حفظ لنا ياقوت بعض أهاجي صاحبنا في هؤلاء الوزراء وغيرهم من الكتاب.

ولعل هذه الأهاجي هي التي جعلت المصادر تنكر أنه كان هجاء آخذًا في الأعراض.

وقد تناول وهب بن سليمان، بن وهب، لما ضرط فمزقه، فمن قوله فيه، وكانت الضرطة بحضرة عبد الله بن يحيى، بن خاقان:

أيا ضرطة حسبت رعده ::: تنوق في سلها جهده
تقدم وهب بها سابقاً ::: وصلى أخو صاعد بعده
لقد هتك الله ستريهما ::: كذا كل من يطعم الفهده

وقال أحمد بن يحيى بن جابر، يهجو عافية بن شيب:

من رآه فقد رأى ::: عربيًّا مدلسا
ليس يدري جليسه ::: أفسا أم تنفسا؟

وقال أحمد بن يحيى البلاذري في عبيد الله بن يحيى وقد صار إلى بابه فحجبه:

قالوا اصطبارك للحجاب مذلة ::: عار عليك به الزمان وعاب
فأجبتهم ولكل قول صادق ::: أو كاذب عند المقال جواب
إني لأغتفر الحجاب لماجد ::: أمست له منن علي رغاب
قد يرفع المرء اللئيم حجابه ::: ضعة ودون العرف منه حجاب

وحدث الجهشياري قال: قال البلاذري:دخلت إلى أحمد بن صالح ابن شيرزاد، فعرضت عليه رقعة لي فيها حاجة، فتشاغل عني

obeikandi.com

فقلت:

تقدم وهب سابقاً بضراطه ::: وصلى الفتى عبدون والناس حضر
وإني أرى من بعد ذاك وقبله ::: بطوناً لناس آخرين تقرقر

فقال: يا أبا الحسن بطن من؟ فقلت: بطن من لم يقض حاجتي، فأخذ الرقعة، ووقع فيها بما أردت.

وقال أحمد بن يحيى: يهجو صاعداً وزير المعتمد:

أصاعد قد ملأت الأرض جوراً ::: وقد سست الأمور بغير لب
وساميت الرجال وأنت وغد ::: لئيم الجد ذو عي وعيب
أضل عن المكارم من دليل ::: وأكذب من سليمان بن وهب
وقد خبرت أنك حارثي ::: فرد مقالتي أولاد كعب

ودليل: فهو دليل بن يعقوب النصراني، أحد وجوه الكتاب، كان يكتب لبغا التركي، ثم توكل للمتوكل على خاصته.

وقال أحمد بن جابر البلاذري: قال لي محمود الوراق: قل من الشعر ما يبقى ذكره، ويزول عنك إثمه، فقلت:

استعدي يا نفس للموت واسعي ::: لنجاة فالحازم المستعد
قد تثبت أنه ليس للحي ::: خلود ولا من الموت بد
إنما أنت مستعيرة ما سوف ::: تردين والعواري ترد
أنت تسهين والحوادث لا تسهو، ::: وتلهين والمنايا تجد
لا ترجي البقاء في معدن الموت ::: ودار حقوقها لك وردُ
أي ملك في الأرض أم أي حظ ::: لأمرئ حظه من الأرض لحدُ
كيف يهوى امرؤ لذاذة أياماً ::: عليه الأنفاس فيها تعد

ومن شعر البلاذري، الذي رواه المرزباني في معجم الشعراء:

يا من روى أدباً ولم يعمل به ::: فيكف عادية الهوى بأديب

ولقلما تجدي إصابة صائب ::: أعماله أعمال غير مصيب
حتى يكون بما تعلم عاملاً ::: من صالح فيكون غير معيب

وحدث الصولي قال: قال لي أحمد بن يحيى البلاذري: كان بيني وبين عبيد الله بن يحيى بن خاقان حرمة، منذ أيام المتوكل، وما كنت أكلفه حاجة لاستغناء عنه، فنالتني في أيام المعتمد على الله إضافة، فدخلت إليه وهو جالس للمظالم، فشكوت تأخر رزقي وثقل ديني، وقلت: إن عيبًا على الوزير - أعزه الله - حاجة مثلي في أيامه، وغض طرفه عني، فوقع لي ببعض ما أردت، وقال: أين حياؤك المانع لك من الشكوى على الاستبطاء؟ فقلت: غرس البلوى، يثمر ثمر الشكوى، وانصرفت، وكتبت إليه:

لحاني الوزير المرتضى في شكايتي ::: زماناً أحلت للجذوب محارمه
وقال: لقد جاهرتني بملامة ::: ومن لي بدهر كنت فيه أكاتم
فقلت: حياء المرء ذو الدين والتقى ::: يقل إذا قلت لديه دراهم

وحدث الصولي عن محمد بن علي: أن البلاذري امتدح أبا الصقر، إسماعيل بن بلبل، وكتب إليه كتاباً حسناً، وسأله أن يطلق له شيئاً من أرزاقه ووعده فلم يفعل، فقال:

تجانف إسماعيل عني بوده ::: ومل إخائي واللئيم ملول
وأن امرؤ يغشى أبا الصقر راغباً ::: إليه ومغترا به لذليل
وقد علمت شيبان أن لست منهم ::: فماذا الذي إن أنكروك تقول؟
ولو كانت الدعوى تثبت بالرشى ::: لثبت دعواك الذين تنيل
ولكنهم قالوا مقالاً فكذبوا ::: وجاؤوا بأمر ما عليه دليل

وله فيما أورده عبيد الله بن أبي طاهر:

لما رأيتك زاهياً ::: ورأيتني أجفى ببابك

عـــــــديت رأس مطـــــــــيتي ::: وحجبت نفسي عن حجابـــك [1]

ومات أحمد بن يحيى في آخر خلافة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ على الأرجح.

وقد تجاوز الثمانين من عمره، إذا افترضنا أنه ولد في أواخر القرن الثاني وأتيح له أن يمدح المأمون الذي توفي سنة ٢١٨ هـ، وهو في العشرين.

وقد كان لموته قصة ذكرها ابن النديم [2] وتابعته المصادر عليها.

ذكر أنه شرب في آخر عمره حب البلاذر [3] فوسوس، وشد في المارستان ومات فيه.

وسمى بعد موته بالبلاذرى. وهذه القصة تثير الشك. وقد شك بها ياقوت منذ القرن السابع. ذلك أن الجهشيارى ينعت جد أحمد بن يحيى، الذي كان كاتبًا للخصيب، بالبلاذرى. قال ياقوت: " قال الجهشيارى في كتاب الوزراء: جابر بن داود البلاذرى. كان يكتب للخصيب بمصر. هكذا ذكر.

" ثم يعقب ياقوت فيقول: ولا أدرى أيهما شرب البلاذر: أحمد بن يحيى أو جابر بن داود.

إلا أن ما ذكره الجهشيارى يدل على أن الذي شرب البلاذر هو جده.

لأنه قال: جابر بن داود، ولعل ابن ابنه لم يكن حينئذ موجودًا " [4].

(١) الحموي، معجم الأدباء، ١ / ٢٠٤.
(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٣.
(٣) البَلاذُر، هو ثَمَرٌ يتناوله الناس ليساعدهم على الفَهْم وقوة الذاكرة.
(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٥: ٩٢.

ومن المؤسف أن طبعة كتاب الجهشيارى التي بين أيدينا ناقصة فقد رجعنا إليها لنرى نص الجهشارى الذي ذكره ياقوت فوجدنا خلطًا عجيبًا.

قال: " وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود البلاذرى المؤلف لكتاب البلدان. وغيره من الكتب " [١].

وهذه العبارة تخالف في تركيبها ما ذكره ياقوت، وتخالف الواقع أيضًا.

فمؤلف كتاب البلدان ليس " أبا عبد الحميد بن داود البلاذرى ".

ويذكر الذهبي في سير النبلاء [٢] أن شربه البلاذر كان للحفظ.

وهذا ما يؤكد الشك في الرواية.

فماذا يريد أن يحفظ من بلغ الثمانين أو تجاوزها، وألحت عليه الحاجة، ولجأ إلى الناس؟ وإنما يبغى الحفظ من كان ناشئًا في بداءة الشباب، يطلب العلم ويجمعه.

ويذكر صاحب الفهرست أنه " شد " في المارستان، وعبارة الذهبي " ربط ".

والعادة أن يربط أو يشد من يخشى قوته وبطشه من المجانين.

فهل عند من جاوز الثمانين مثل ذلك؟ وكيف كان سبب موته، ورغم شكوكنا هذه، فإننا ما نزال نحتاج إلى نصوص جديدة صحيحة لكتاب الجهشيارى وغيره، لتبين لنا كيف مات، وتبين لنا هل كان " البلاذرى " لقبًا له أم لجده.

(١) الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٥٦.
(٢) الذهبي، سير النبلاء، ٩/ ٧١.

تلك هي حياة أحمد بن يحيى العامة.

أما حياته العلمية فقد كانت أخصب وأكثر ثمارًا.

فقد نشأ في بغداد وأخذ عن علمائها في النصف الأول من القرن الثالث.

وحضر حلقاتهم في الحديث والأدب والسير.

وكان أكثر من أخذ عنهم الحسين بن على الأسود (٢٥٤ هـ) والقاسم ابن سلام (٢٢٤ هـ) وعلى بن محمد المدائني (٢٢٥ هـ) ومحمد بن سعد كاتب الواقدي (٢٣٠ هـ) وقد ذكرت المصادر معرفته الفارسية[١].

ولعلمه تعلمها، وكانت لغة أجداده إذا ذهبنا إلى أن أصله من الفرس وكذلك يبدو أنه أحاط بطرف من ثقافة الروم.

فنحن نراه يجادل أمام المتوكل في كيفية التاريخ عندهم [٢].

وبعد أن أخذ طرفًا كبيرًا من علم أهل العراق توجه إلى الشام.

فسمع في دمشق عالمها هشام بن عمار (٢٤٦ هـ) وأبا حفص الدمشقي (٢٢٥ هـ).

وطاف في بلاد الشام فزار حمص وسمع فيها من محمد بن مصفى (٢٤٦ هـ) ثم حلب ومنبج، وأنطاكية، وثغور الروم، والجزيرة، والرقة وتكريت.

لا ندري على الدقة متى كانت رحلته إلى الشام، فهو لم يذكر متى طاف بهذه البلاد، ولكننا نرجح أن ذلك كان بعد وفاة المأمون

(١) ابن النديم، الفهرس، ص ١١٣.
(٢) ياقوت، معجم الأدباء ٥: ٩٣ وما بعدها.

سنة ٢١٨ هـ أي في زمن المعتصم، فنحن لا نسمع شيئًا عنه في هذه الفترة، يضاف إلى ذلك أن أبا حفص الدمشقي الذي سمع منه بدمشق توفى سنة ٢٢٥ هـ.

فلا بد أنه سمع منه قبل ذلك.

وهكذا جمع صاحبنا إلى علم أهل العراق علم أهل الشام.

وقد كانت رحلته هذه وسيلة لاكتسابه ثقافة جديدة أفادته في كتابه فتوح البلدان. فقد أخذ كثيرًا عن أهل دمشق وحمص ومنبج والرقة والثغور وأنطاكية أخبار فتوحهم وأثبتها في كتابه إلى جانب أخبار أخرى.

وقد كان لأساتذته وثقافته ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثر في إنتاجه وفى نوع هذا الإنتاج.

فقد استفاد بطريق ابن سعد جميع روايات الواقدي في الفتوح.

واستفاد من المدائني نفسه رواياته في كتبه الكثيرة في الفتوح والبلدان.

وأخذ بطريق حفيد ابن الكلى ما رواه جده في الأنساب.

وأخذ عن القاسم بن سلام أمور العشر والخراج.

فكان بعد ذلك مؤرخًا للبلدان، وكان نسابة، وراوية شاعرًا.

وهذه الاتجاهات هي التي ظهرت بعد في كتبه.

وثمة تأثير آخر لمعرفته الفارسية هو نقله آثار الفرس إلى العربية، حتى نعته ابن النديم بأنه كان أحد النقلة إلى اللسان العربي.

هذه الثقافة الحضارية المطمة أهلته أن يكون عالمًا مؤلفًا وأن يكون نديمًا للخلفاء، وأن يأخذ عنه كثيرون.

وقبل أن نتكلم على إنتاجه بالتفصيل يجدر أن نذكر أن تلاميذ أحمد ابن يحيى كانوا كثرًا.

يكفى أن نذكر أنه أستاذ وكيع القاضى، وجعفر بن قدامة صاحب الخراج.

وقد ذهب دخويه إلى أن صاحب الفهرست محمد بن إسحاق النديم كان تلميذه.

وهذا خطأ. ومصدره الترجمة التي كتبت بخط المقريزى في أول فتوح البلدان.

والصحيح أن الذي أخذ عنه هو يحيى بن النديم. فقد تصحفت يحيى إلى محمد.

والمعروف أن صاحب الفهرست لم يدرك البلاذرى ومات بعده بما يقرب من مئة سنة، فقد مات يقينًا بعد سنة ٣٧٥ هـ.

ويحيى بن النديم هذا هو يحيى بن المنجم، وكان من أسرة كانت ندامى للخلفاء.

فأما ما نقله عن الفارسية فقد عرفنا منه " عهد أردشير " الذي نقله شعرًا.

ولم يصل هذا الكتاب إلينا.

كانت ثمار ثقافة أحمد بن يحيى " كتبًا جيادًا " أو " حسنة " كما نعتتها المصادر.

وأشهر هذه الكتب كتاب أنساب الأشراف.

وقد نقل ياقوت والصفدى أن اسم الكتاب " جمل نسب الأشراف " وقال: هو كتابه المعروف المشهور.

لكن المطبوع من ابن النديم لا يذكر له هذا الكتاب، بل يذكر كتابًا باسم " كتاب الأخبار والأنساب " لم يذكره أحد ممن نقل عن ابن النديم.

والمطبوع من الفهرست ناقص لا شك.

أما حاجى خليفة فيذكر للبلاذرى كتابين متقاربين الأول: أنساب الأشراف، ويذكر أنه في عشرين مجلدًا ولم يكمله.

والثانى: الاستقصاء في الأنساب والأخبار في أربعين مجلدًا ولم يكمله.

وهو لا يثبت مبتدأ الكتاب كعادته مما يدل على أنه لم يره.

ولم يذكر أحد من المتقدمين كتاب الاستقصاء بهذا الاسم.

ويذكر الخاوى [1] أن له كتاب التاريخ وكتاب أنساب الأشراف.

وقد ظن دخويه أن الأنساب والأخبار هو التاريخ الذي ذكره السخاوى.

وينعته الذهبي بأنه صاحب التاريخ الكبير.

والمرجح أن كتاب الأنساب والأخبار هو كتاب أنساب الأشراف، بدل اسمه، وأن الأنساب هو التاريخ نفسه. وقد بدأ البلاذرى كتابه بسيرة النبي، وسير الصحابة. ثم أورد العباسيين بعد العلويين، وبنى عبد شمس بعد بنى هاشم.

وذكر الأمويين في بنى عبد شمس، لكنه لم يفرد لهم مكانًا خاصًّا. ثم تحدث عن بقية قريش وبطون أخرى من مضر. وشغل الجزء الأخير من كتابه عن قيس، وخص بالذكر منهم ثقيف، واستفاض في سيرة الحجاج.

(١) الإعلان بالتوبيخ ص ١٥٤.

وقد نشر الأستاذ الدكتور حميد الله قائمة بمواد الكتاب كلها عن النسخة الوحيدة منه الموجودة في استامبول. وألف أحمد بن يحيى كتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير. أما الكبير فلم يتم. ويظن بعض العلماء أن كتاب فتوح البلدان الذي بين أيدينا هو كتاب البلدان الصغير. ولا يذكر حاجى خليفة كتاب فتوح البلدان. على أن ابن النديم يذكر أن كتاب الفتوح إلى جانب كتابيه في البلدان. وقد نقل هذا عنه ياقوت والصفدى.

ولا يوجد اسم كتاب الفتوح في المطبوع من ابن النديم.

ونرجح أن يكون كتاب الفتوح هذا هو فتوح البلدان.

ونعتقد أن كتابيه في البلدان هما على نمط كتب البلدان التي ظهرت في القرن الثالث فكان منها كتاب البلدان لليعقوبي وكتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني [1].

* * *

(١) انظر مقدمة كتاب فتوح البلدان، للبلاذري، طبعة القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ١/ ٢٤٣، ومحمد صامل السلمي، منهج كتابة التأريخ الإسلامي ٣٨٨ - ٣٨٩.

obeikandl.com